٦٧

ملامح مشكلات تربية الثقافة

أحمد أبو موسى *

أحاول في هذه الورقة أن أطرح موضوع مشكلة تربوية أعتقد بأهميتها وخطورتها الراهنة والمستقبلية كونها تتعلق ببناء الجيل وصياغة ملامح المستقبل الذي نتطلع إليه من منظار ثقافتنا العربية وما أنتجته من قيم رفدت نضالنا وتمسكنا بهويتنا وحقوقنا في مختلف المراحل والظروف ولعل الأمر يزداد صعوبة يوماً بعد يوم بالنسبة للعاملين في ميادين ثقافة الأطفال والمربين بالدرجة الأولى ولا شك بأن للمسألة الثقافية في تربية الطفل أهمية خاصة في كافة مجتمعات العالم المتطورة منها والنامية، وكل مجتمع من هذه المجتمعات يعنى بتعليم أطفاله وتثقيفهم وتربيتهم وفق سياسته وإيديولوجيته التي يؤمن بها ويطرحها.

* باحث سوري

- العمل الفني: الفنان أحمد الياس



وإنَّ نظـرة إلى خارطة الوطن العربي ومكانه في العالم توضح لنا أن هذا الوطن يتعرض إلى هجمات إمبريالية واستعمارية متواصلة مما يحتم علينا أن نضع المسالة الثقافية في تربية الطفل موضع متقدم وأن نوليها العناية اللازمة ونهيئ لها كافة سبل النجاح لتساهم في خلق جيل عربي يواجه المستقبل بثقة وقوة وليحمل على عاتقه مهمة المساهمة في بناء الوطن والدفاع عنه.

لقد شهد القرن العشرين اهتماماً واسعاً بدراسة الطفل لمعرفة العوامل المؤثرة والمتفاعلة في تكوين شخصيته وسلوكه بصورة عامة ولم يكن الطفل في الماضي موضوع اهتمام الدراسات العلمية اعتماداً على الرأي القائل «أن الطفل رجل صغير» أي ليس بين الطفل والراشد من فوارق إلا في درجة العمر في حين تبين أن الأطفال ليسوا راشدين صغاراً لهم ما للراشدين من صفات عقلية وعاطفية وحسية وخيالية بصورة مصغرة، بل لهم صفاتهم الخاصة بهم، وأن عملية نمو الطفل عملية مستمرة ومتكاملة لكونها تمر بمراحل مختلفة السرعة والاتجاه، وهناك خصائص معينة لا تظهر إلا في فترات محددة من مراحل النمو وأخرى تضمر وتتنحى وثالثة تأخذ اتجاهاً جديداً، وعليه فقد نظر إلى الطفولة اليوم على أنها مرحلة تطور وما هي إلا سلسلة من عمليات التكيف وإعادة تنظيم العلاقات في البناء التكويني والنمو العقلي وفي الشخصية بصوره عامة وعلى هذا مادام الأطفال ليسوا رجالاً صغاراً فإننا نستطيع القول ينبغي أن تكون للأطفال ثقافة خاصة بهم هي ثقافة الأطفال وثقافة الأطفال ليست تصغيراً أو تبسيطاً للثقافة العامة السائدة في المجتمع بل هي كيان خاص له ملامحه المتميزة والتي تختلف نوعاً لا كماً عن ثقافة الراشد أي تثقيف الأطفال لا يعني أن ينقل الكبار إلى الصغار كل مفردات الثقافة العامة بشكل مبسط بل يعني أن ينقل الكبار للصغار ما يلزمهم منها وما يتناسب مع قدراتهم، ويلبي حاجاتهم ويساعدهم على الانتقال إلى مرحلة النضج، ومن هنا تبرز أهمية وأثر وسائل الاتصال المسموعة والمرئية والمقروءة في حياة الأطفال لأن الحديث عن أثر هذه الوسائل ودورها في سلوك وثقافة الأطفال أمر على جانب كبير من الأهمية وهو شائق وممتع ومفيد بقدر ما هو شائك المسارب متنوع الاتجاهات ومتعدد الأبعاد والأهداف على اعتباره يثير عدداً

من الموضوعات والمسائل والمشكلات ذات الصلة الحميمة بحياة الأطفال أنفسهم من جهة وذات العلاقــة المباشرة بالقطاعات الحياتية المختلفة التــي تتوجه إلى هؤلاء الأطفــال من جهة ثانية، ثم إن قياس قوة التأثير لهاتــين الوسيلتــين الإعلاميتين، هو بحد ذاته يحتــاج إلى دراسات معمقة ومتقصية على مختلف المستويات الثقافية والاجتماعيــة والبيئيــة والمهنيــة بهدف اكتشاف آليــة الترابط التي تحكم علاقة الطفل بمضامين البرامج التي توجه إليه، وهــذا يستدعي بالضــرورة الوقوف على مجموعة من المعطيات والمؤشرات، نحاول استقصاءهــا مــن داخل مجتمــع الطفل وما يحيط به، كما نحــاول رصدها لدى بعض الجهات، والهيئات (بشكل أو بآخر) المعنية بالطفل تكويناً وإعداداً وذلك لكي نستطيع تحديد بعضــ المبادئ الأساسية التي ننطلق منها في عملية التقويم.

أما فيما نستهدفه مــن نتائج وأحكام فلابد للوصول إليها وقياس قوة التأثير في ضوئها من دراسة علمية للبرامج الإذاعية والتلفزيونيــة عموماً من خــلال موقعها في فلك توقيــت الاستماع والمشاهدة لدى الأطفال، ومن ثــم التوقف عند مضامين برامج الأطفال علــى وجه مخصوص مع

الإشارة إلى أولئك الذين يسهمون في تقديم هذه المضامين من كتاب ومعدين وموسيقيين ومنتجين ومنفذين ومخرجين وباحثين ومخططين لبرامج الأطفال في كل من الإذاعة والتلفزيون على حد سواء ذلك أن يواصل هؤلاء جميعاً مع الأطفال من خلال ما ينتجون وعبر أكثر وسائل الاتصال الجماهيري قوة وتأثيراً هو قضية في منتهى الدقة والخطورة، نظراً لحجم الدور الذي تلعبه الوسائل في صياغة جانب كبير من ثقافة الأطفال فضلاً عما تسهم به في تكوين شخصياتهم وتحديد أنماط السلوك لديهم وتخطيط مسارات مستقبلهم، ولعله يصح أن نقول في هذا المجال:

«إن أطفال اليوم ينشؤون ويتكونون في حضانة ورعاية الأم والأب والأخوة والأقارب والتلفزيون «وربما يصح كذلك أن نميز دور التلفزيون عن دورهم بما يتوفر له من خصائص هامة ثلاث:

إنه علم وهو حصاد تجربة ونتاج وخبرة، وهو أخيراً عطاء فني ثقافي تربوي متجدد ومتنوع يفيد ويشوق ويستهوي.

وهنا تبرز لدينا مشكلة بالغة الأهمية في توجيه وتكوين ثقافة الأطفال من خلال هذه الوسيلة الإعلامية ومدى قدرتنا على توظيفها وإمكانية قراءة قدراتنا وواقعنا نحو تطلعاتنا.

التأثير وهوية الطفل الثقافية:

إنَّ برامج الأطفال في محطات التلفزيون العربية ما تزال دون ما ينبغي لها من مستوى من حيث الشكل والمضمون، فضلاً عن أن البحوث الميدانية في هذا المجال ما تزال تدور في نطاق ضيق ومحدود والثقافة التي يعيشها طفل اليوم في الوطن العربي، لا تمنحه مع الأسف المقومات الأساسية لطفولته كما ينبغي أن يعيشها، ويكيفها مع قدراته العقلية ومؤهلاته النفسية لكي يبني مستقبله عليها. وإذا كانت برامج الأطفال رافداً هاماً من روافد ثقافة الطفل، فهي بدورها تواجه مشكلات في التخطيط والتوجيه، وتتخبط مضامينها ضمن حدين سلبيين، فهي إما مضامين مفتقرة إلى التخطيط المنسق والمتكامل على المدى القريب والمتوسط والبعيد ودون مستوى التخطيط العربي التربوي الاستراتيجي المبرمج والمتناسب مع قدرات الطفل العربي، وإما مضامين تمَّ إعدادها بصورة ارتجالية بعيداً عن استطلاع رغبات وطموحات أطفال اليوم ورجال المستقبل.

ولسنا هنا بسبيل دراسة وتحليل

مضامين برامج الأطفال المقدمة من التلفزيونات العربية ولا بصدد نقدها وكشف عجزها وعقدها الإعلامية، وإنما الذي يعنينا هو التنبيه إلى الفراغ الذي يعيشه التلفزيون العربي بالنسبة للأطفال وإلى تخلف هذا التلفزيون باعتباره أهم وسيلة من وسائل الاتصال عن توظيف إمكاناته وقدراته لخدمة جمهور الأطفال مما يؤدي بالضرورة إلى هدر هذه الطاقة وإضعاف قوة التأثير التي تمتلكها، ولا نبالغ، ولا نتجنى على الواقع إذا اعتبرنا برامج الأطفال في ضوء هذا المنظور غير موجودة وما هو موجود فعلاً سواء في التلفزيونات العربية التي جاوزت نصف قرن من عمرها أم في التلفزيونات الحديثة إما عبارة عن برامج هجينة أو برامج محدودة من حيث الكم ومتشابهة من حيث النوع ففي الوطن العربي حوالي مئة وخمسين محطة تلفزيونية في الوقت الحاضر، ومعظمها يبث فترة يومية للأطفال في حدود الساعة والنصف وسطياً، مع الأخذ بعين الاعتبار تفاوت هذا المعدل من محطة إلى أخرى، وإذا ما استعرضنا مجمل المواد لهذا الحجم من الساعات وجدنا أنَّ ما يقارب النصف عبارة عن أفلام كارتون أجنبية لم يتم إنتاجها لصالح الطفل العربي وفي المقابل كمية مقاربة من الأفلام السينمائية تكاد أن تكون ناطقة بكل لغات العالم إلا العربية باستثناء ظاهرة «الدبلجة»، وفي حال توفر الترجمة فهي غير مقروءة بصورة مطلقة على اعتبار أن بعض الأطفال لا يزالون دون سن القراءة، ولهذا إذا ما أتينا إلى النذر اليسر من الإنتاج العربي المحلي وجدناه يفتقر إلى الكثير من الموضوعية ويفتقد حرفية العمل الفني باستثناء نسبة محدودة جداً من هذا الإنتاج استطاعت أن تحقق بعداً ومضموناً ومستوى، ولكنها تظل ظاهرة فريدة لا يمكن القياس عليها إلا إذا تكررت وفي كل محطة، وإذا فليس ثمة من مخلوق مضطهد في مجتمعنا العربي قدر الطفل فيما يخص حظوظه من الزاد الإعلامي وأطفالنا الذين يشكلون نسبة الأربعين بالمئة منا وأكثر قليلاً مهملون ومتروكة عقولهم وأذواقهم نهباً لهيمنة الإنتاج الأجنبي رغم أننا نعقد على هؤلاء الأطفال كبار الآمال في تحقي سلامة وجودنا، وهكذا فالمشكلات لا تقف عند حدود التأثيرات المؤقتة والسريعة لمضمون برنامج معين، وإنما تمتد إلى مدى التطورات والتحولات المتوالية التي تحدث آثارها في عالم الطفل على المدى البعد وبخاصة الاجتماعي.

إن الطفل يتلقى يومياً سيلاً من المواد المختلفة المتنوعة، ويتزود من خلالها بمعلومات سياسية وثقافية واقتصادية وفنية وأدبية وجغرافية وتاريخية وعاطفية. إضافة إلى مشاهد العنف التي يتابعها في المسلسلات والأفلام العربية والأجنبية على حد سواء فهذه جميعاً تترك بصماتها الثقافية في ذاكرة الطفل، وتخلف لديه ثقافة هجينة حيناً ومرتسمات ثقافية سلبية الأبعاد في أكثر الأحيان.

وهنا لا بد من إثارة سؤال على جانب كبير من الأهمية والدقة هل يحب الطفل ما يشاهد؟ أم أنه يشاهد فقط ما يحب ويختار؟ في الواقع ليس هناك من إجابة محددة أو واضحة فالدراسات حول هذا المسألة متناقضة.

يلاحظ أن الطفل في أغلب الأحيان حين لا يكون لديه خيار يشاهد بعض البرامج التي لا يميل إليها، وربما يحمله ذلك على استهوائها ومتابعتها فيما بعد، وهذا ما يساعد على توسع. قاعدة ميوله، والواقع إن مسألة التذوق الفني مسألة نسبية، وليست مطلقة فالطفل مثلاً حين يتعرض للتلفزيون يشاهد أول ما يشاهد برامج الأطفال التي تتألف عادة من أفلام الدمى والصور المتحركة وأفلام الحيوانات وقصص الأطفال وأغانيهم وأناشيدهم، إلا أنه سرعان ما يكتشف برامج الكبار ويقبل عليها وقد يؤدي به ذلك في أغلب الأوقات إلى تفضيل برامج الكبار على برامج الصغار وتدل الدراسات على أن ثلثي مشاهدات الأطفال تغطيها برامج الكبار، وأن أعلى نسب هذه المشاهدة تبلغ ذروتها يومي الخميس والجمعة والأحد، مرد ذلك المضامين الجيدة المتنوعة والبرامج الخفيفة والترفيهية علماً أن هذه البرامج تكون بوجه عام موجهة للكبار، غير أن الأطفال في ميلهم إلى أنواع معينة من برامج الكبار كالقصص العاطفية وقصص المغامرات وأفلام العنف والعروض البوليسية لا يتفقون على سر التفصيلات وإن تماثلوا في العمر والجنس ومستوى الذكاء وتشير بعض الدراسات أن الطفل في مرحلة ما قبل المدرسة يشاهد من برامج الكبار أكثر مما يشاهد من برامج الصغار، لأنه في هذه المرحلة يميل إلى تقبل أكثر البرامج بشكل عام انطلاقاً من تفسيره وفهمه الحقيقة والواقع من حوله في ضوء مؤشر انفعالاته في حين أن الطفل في مرحلة ما بعد السادسة يعمل تحت ظل قوانين المدرسة على اكتشاف عالمه الجديد

وينفتح عليه بهدف بناء ذاته وتكوين المقومات الأولى لشخصيته، ولو أنه يظل في هذه المرحلة ومن خلال استفساراته وتساؤلاته ومقارناته يدور في فلك التقليد وبخاصة تقليد مشاهد التلفزيون على أن ميل الطفل للبرامج المختلفة يبدأ في الاستقرار عموماً حوالي العاشرة أو الحادية عشره من عمره، ويصبح الطفل في سن المراهقة حيث يتمتع بحساسية مرهفة أكثر نضجاً، سواء في تقبل البرامج أم في رفضها، لأنه في هذه المرحلة يعمل على انتقاء واختيار المضامين التي تنسجم وتتفاعل مع مشاعره وأفكاره في ضوء هذه المعطيات الأولية تتضح أهمية دراسة المعوقات التي تحول دون قدرة معظم التلفزيونات العربية على فهم وإدراك المواد التي تهم الأطفال وتعالج مشكلاتهم، كما يتضح مقدار الحاجة إلى إعادة النظر في برامج الأطفال ومضمونها لتنسجم مع أذواق الأطفال كافة وتتفق مع احتياجاتهم واهتماماتهم، وتستهدف تطور سلوكهم ومواقعهم وصولاً إلى تحقيق الأهداف المرجوة من وراء إعدادهم لتحمل مسؤوليات المستقبل.

إن مثل هذه المهمة لا يمكن أن تؤتي أكلها في غياب المعلومات والنتائج التي يتم التوصل إليها من خلال عملية قياس مدى التأثر الإذاعي والتلفزيوني على جمهور الأطفال ولكن كيف يجري هذا القياس وما هي حدوده ومجالاته، ما هي أهدافه؟.

القياس: أهميته ومجالاته ووسائله وأهدافه:

إن أشكال ومظاهر الواقع الإذاعي والتلفزيوني لبرامج الأطفال بكل أبعاد هذا الواقع ومشكلاته تدفع المعنيين والمختصين بشؤون الأطفال إلى إجراء البحوث الميدانية بهدف تقويم البرامج الموجهة للأطفال من جهة وتحطيم الحواجز التي تتصل بين الإذاعيين وجمهور المتلقين من الأطفال من جهة ثانية، وتساعد عملية البحث والقياس في الوصول إلى تصور محدد لمركزية التخطيط الاستراتيجي لبرامج الأطفال على اعتبار أن التأثيرات التي تتركها وسيلة الاتصال الجماهيري تتعلق بمدى الإنتاج البرامجي على ترجمة الأهداف الاستراتيجية من ناحية كما تتعلق بمدى قدرة الوسيلة نفسها على تغيير المواقف والسلوك ورفع المستوى التربوي والثقافي لجمهور الأطفال وزيادة معارفه من ناحية أخرى، ولهذا يتعين أن تتجه عملية البحث في أكثر من اتجاه لتحقيق الغايات التالية:

١- قياس مجال تعرض الأطفال للإذاعة والتلفزيون وتحديد قوة هذا التعرض وتفاوت درجاته بالنسبة للفئات العمرية.

٢- استطلاع عادات الأطفال وأساليبهم في الاستماع والمشاهدة.

٣- التعرف إلى اتجاهات وردود فعل الأطفال إزاء الإذاعة والتلفزيون محلياً وعربياً.

٤- القياس الدوري لحجم الاستمتاع والمشاهدة لمعرفة مقدار تجاوب الإذاعة والتلفزيون مع الخدمات التي ينبغي تقديمها لجمهور الأطفال.

٥- استطلاع آراء الأطفال فيما يستمعون إليه وما يشاهدوه مع استقصاء مقترحاتهم فيما يحقق التلاؤم بين الخدمة الإعلامية وما يتوقعونه منها.

٦- استقراء خصائص جمهور الأطفال على أساس أن هذا الجمهور مؤلف من نوعيات بيئية مختلفة ومستويات أسرية متباينة وفئات عمرية متعددة.

٧- استخلاص بعض معطيات عملية القياس كمعرفة بداية أول المشاهد لدى الطفل في البيت. مدة المشاهدة، نهاية المشاهدة اليومية المدة الكلية للمشاهدة، متوسط المشاهدة الأسبوعية، تحليل مدة المشاهدة حسب متغيرات أخرى غير العمر أو الجنس، من يفتح التلفزيون، من يغلق التلفزيون، من يشاهد التلفزيون إلى جانب الطفل ؟

٨- التعرف إلى سلوك ومواقف الأطفال خلال عمليات الاستماع والمشاهدة.

٩- التعرف إلى آراء ذوي الأطفال في أثر الإذاعة والتلفزيون بالنسبة لأطفالهم.

١٠- معرفة مدى تلاؤم أوقات البث مع ما يناسب أوقات الفراغ لدى الأطفال.

١١- استقصاء ميول الطفل واستطلاع مدى وعيه للأهداف النوعية التي تسعى البرامج إلى تحقيقها.

١٢- معرفة موقع البرامج من الأطفال ذوي الحاجات الخاصة.

١٣- قياس آثار الإذاعة والتلفزيون من خلال مؤثرات وسائل الاتصال الأخرى التي تسهم في تشكيل وجدان الطفل.

١٤- التعرف إلى آراء المربين والمختصين وسائر المعنيين بشؤون الأطفال بدءاً من المدرسة والأجهزة التربوية، وانتهاءً بالمنظمات الشعبية والمراكز الثقافية ومعاهد الأطفال ونواديهم.

أما فيما يتعلق بالأساليب المستخدمة في عمليات البحث والقياس واستطلاع الرأي وجمع المعلومات فهي أساليب كثيرة

ومتشعبة ومتداخلة فيما بينها، وترتكز على أسس ومناهج متعددة وبعض هذه الأمور تعتمد طريقة المقابلة وجهاً لوجه مع كل فرد من أفراد العينة المختارة مع إمكان استخدام الهاتف بديلاً عن المقابلة للتعرف إلى آراء فئة محددة، وإن كان هذا الاستخدام لا يمكن من تقدير نسبة المشاهدة الجماعية، أما البعض الأخر فيعتمد طريقة الاستفتاء بنوعيه الموجه ونصف الموجه، وهي طريقة تعطي مؤشرات ووجهات نظر مختلفة قد تكون متناقضة أحياناً إذا كان الاستفتاء بتناول فئات اجتماعية غير متجانسة وهذه الطريقة لتأثير الإذاعة مسموعة أو مرئية على أطفالهم درجة الأفضلية التي يوليها الأطفال للبرامج ومدى تعرضهم لهذه البرامج، وما إذا كان يدخل في اهتمامات الأطفال متابعة نشرات الأخبار ونوع الأخبار التي تستهويهم، كما تشمل الاستبيانات على أسئلة عن مدى نجاح الإذاعة أو التلفزيون في غرس القيم الإيجابية في نفوس أطفالهم وما يلاحظه الأهل من تأثيرات انفعالية على أطفالهم خلال استعراض مشاهد العنف بالإضافة إلى أسئلة تستهدف معرفة ما إذا كان الطفل يفضل النزهة خارج البيت على مشاهدة التلفزيون، أو يتخلى عن متابعتها لممارسة أنشطة أخرى كاللعبة أو اللهو مع أقرانه. ■■

☆ ☆ ☆